الفصل الحادي عشر

أوروبـا

(لمحة تـاريخية)

لما كانت القارة الأوروبية قد أحدثت تأثيرًا كبيرًا في محيطها العالمي بسبب ما جرى فيها من أحداث وردود أفعال كان لها أكبر الأثر فيما نتج عنها من نظريات في الحكم وشرائع إنسانية بشرت بحقوق الإنسان، وما أدى إلى بلورة الفكر الديمقراطي وبروز الدولة القومية الحديثة في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وما تلا على أثر ذلك من نتائج من قيام دول قومية وقوى عظمى استعمارية وحربين عالميتين وحرب باردة بين المتنافسين، فما زال السجال مستمرًا ولو تحت الرماد للمتنافسين أيضًا رغم ثقافة الديمقراطية الواحدة. فربما الآن من المفيد بينما نحن نقوم بدراسة ومراجعة للفكر القومي العربي، أن نلقي نظرة تاريخية موجزة إلى حد كبير هي الأقرب إلى الرقمية منها إلى الشرح عما حدث في أوروبا، وذلك بهدف معرفة كيف وصل الأوروبيون إلى الديمقراطية التي جعلت الولايات المتحدة التي أنجبتها أوروبا تسود العالم في هذا العصر. فربما يكون لنا كعرب من هذه القراءة المتواضعة فائدة وعبرة..

ليس لهدف النقل والتقليد وإنما لحفزنا على التلفت يمنة ويسرة لندرس محيطنا وموقعنا بين الأمم، ونسترشد بالفكر العالمي وما خطاه الآخرون فنحن بشر أيضًا، فلماذا لا يكون لنا دور نستطيع من خلاله أن نرتقي ونبني وطنا عربيًا عزيزا.

كلنا يعلم أو سمع أو قرأ قديمًا أو حديثًا، بأن الشعوب الأوروبية قد عانت من مشكلات عدة في العصور الوسطى باسم المسيحية. فقد نشبت أعمال عنف أريقت خلالها الدماء، واضطهدت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الفئات التي عارضتها، وتسببت بالحروب التي أطلق عليها الحروب الصليبية ضد العرب تحت ذريعة تحرير الأماكن المقدسة من المسلمين في فلسطين. كما وأدى مولد المذهب البروتستانتي في عدة دول أوروبية باسم المسيحية إلى نشوب حرب بين الكاثوليك والبروتستانت استمرت مائة عام. وما زال أثر الصراع المذهبي في أوروبا ماثلاً أمامنا بين بريطانيا وايرلندا الشمالية حتى الزمن الحاضر.

أما الحضارة الأوروبية منذ بدايتها الأولى وكيف وصلت إلى ما هي عليه الآن، فقد بدأت في جزر بحر ايجة شرقي اليونان وخاصة في جزيرة كريت، وازدهرت في

الفترة بين ٣٠٠٠ ق.م و ١٢٠٠ ق.م، فقد كان سكان كريت يستخدمون الكتابة ويقومون بالتجارة. هذا، وظهرت حضارة مماثلة في جزيرة مالطة جنوبي إيطاليا. وفي حوالي عام ٢٥٠٠ ق.م. تقريبًا وصل البحارة عن طريق السواحل البحرية إلى جنوب وغرب أوروبا وتعرف الأوروبيون في تلك المناطق على نمط حياة المالطيين وطريقة عيشهم. كما وأن الفرسان من قبائل مناطق شرقي البحر الأسود في حوالي ٢٠٠٠ق.م اجتاحت أوروبا جنوبًا وغربًا، وتمكن هؤلاء من نشر ثقافة الحرب والقتال في معظم أنحاء أوروبا عندما غزوا الكثير من مناطق الريف.

وبهذا يُعتبر الفضل الكبير للإغريق في قيام وازدهار الحضارة في مناطق أوروبية حيث نزحت قبائل من الشمال إلى شبه جزيرة اليونان وكان ذلك في حوالي سنة ٢٠٠٠ق.م.، فحينما استقرت هذه القبائل في اليونان صنعت حضارة على نمط حضارة كريت، وأصبح الإغريق قوة في منطقة بحر إيجة.. استولوا على كريت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. وقد تعرضت اليونان بعد ذلك إلى عدة غزوات من قبائل الشمال التي طردت السكان من جنوب اليونان، وخلال القرون استطاعت هذه القبائل أن تكون وحدات سياسية مستقلة. وفي القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ظهرت "اسبرطة" و"أثينا" ومدن أخرى، وانتشرت فكرة الديمقراطية وازدهرت الحياة فناً وعلماً في الكيانات أو المدن المستقلة. وحينما قويت مملكة "مقدونيا" القديمة استطاعت توحيد الولايات الأخرى وبسطت نفوذها عام ٣٣٨ ق.م.، وحينما أصبح "الإسكندر الأكبر" حاكما لمقدونيا تمكن من إقامة إمبراطورية امتدت شرقا وغربًا، كان جزء منها أوروبيًا وأما معظمها فكان في آسيا. عمل الإسكندر الأكبر على نشر الثقافة الإغريقية في أرجاء الإمبراطورية المترامية الأطراف، ولما مات سنة ٣٢٣ق.م. ضعفت مقدونيا إلا أن حكام الإمبراطورية ظلوا يبسطون سيطرتهم على اليونان.

أما الحضارة الرومانية فتعتبر من أعظم حضارات أوروبا بعد الحضارة الإغريقية. وقد اختلف المؤرخون على كيف ومتى قامت حضارة روما، إلا أن المهم هو أن روما كانت منذ عام ٢٧٥ق.م. تبسط سيطرتها على إيطاليا جنوبي ما يعرف الآن بفلورنسا. ولم يمض القرنين التاليين إلا وتمكن الرومانيون من بناء الإمبراطورية

التي شملت ما يعرف الآن بأسبانيا وحتى جنوبي آسيا، وقد شملت أيضًا الساحل الشمالي لإفريقيا وضمت فيما بعد كل ما تبقى من أوروبا. وبلغت الحضارة الرومانية أوجها بين سنة ٢٧ق.م. وسنة ١٨٠م، فلم تكن قوة أخرى في تلك الفترة تمثل خطرا عليها، فبلغ الفن والعلم ذروتهما وازدهرت التجارة بين أرجاء الإمبراطورية. هذا، ويجب ألا يغيب عنا أن الرومان قد اقتبسوا الكثير من الثقافة الإغريقية حتى أطلق على الثقافة الرومانية اسم الثقافة "الإغريرومانية".

لقد كان للرومان إسهامهم في مد شبكات الطرق وبناء المدن والقلاع والمعابد في أنحاء الإمبراطورية، وأصبحت اللغة اللاتينية أساسًا للغات المتداولة في أوروبا اليوم. وأصبح الكثير من الأسس القانونية التي وضعها الرومان جزءًا من أنظمة قوانين أوروبا وأنظمة قوانين بلاد العالم الجديد في الأمريكيتين.

كانت بداية المسيحية في فلسطين التي كانت جزءًا من الإمبراطورية الرومانية. ولما انتقلت وانتشرت في الجزء الأوروبي ظل الرومان يضطهدون المسيحيين حتى مطلع القرن الرابع الميلادي حينما منح الإمبراطور "قسطنطين الكبير" حرية العقيدة للنصارى، وقبل انتهاء القرن الرابع الميلادي أصبحت المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية حيث جاء الإمبراطور تياؤدوسيوس الأول (٣٧٩-٣٩٥) وأعلن في الثامن والعشرين من فبراير عام ٣٨٠م العقيدة المسيحية دينًا رسميًا للإمبراطورية. وفي نهايات القرن الثاني الميلادي صارت القبائل القوية في الشمال والشرق تهدد الإمبراطورية الرومانية بعد أن كثرت الخلافات الداخلية، فراحت تتفكك الإمبراطورية حتى أعاد الإمبراطور قسطنطين توحيدها عام ٣٢٤م.، لكنها انقسمت عام ٣٩٥م بصورة نهائية إلى إمبراطوريتين، شرقية وعاصمتها القسطنطينية وغربية وعاصمتها روما.

أما العصور الوسطى فهي الفترة من تاريخ أوروبا بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية حتى القرن السادس عشر الميلادي. اختفت الحكومات القوية التي أسسها الرومان وحلت مكانها دول وممالك صغيرة. في العصور الوسطى أصبحت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية القوة الوحيدة صاحبة النفوذ في كل نواحي الحياة،

سياسة، وفنون، وعلوم. وحينما تخلفت التجارة التي ازدهرت في عهد الإمبراطورية الرومانية منذ السنين الأولى للقرون الوسطى، اتجه الناس إلى الزراعة يعتمدون عليها في معيشتهم، فهاجر سكان المدن إلى الريف، وراحت تتلاشى الطبقة الوسطى بالتدريج، وتخلف كل شيء تقريبًا، وأصبح النظام الاقتصادي نظامًا إقطاعيًا حيث قسمت الأرض إلى مساحات شاسعة، وامتلكها الإقطاعيون، وصار الناس يعملون في أملاك "اللورد" مالك الأرض الذي أضحى مسئولا عن حياتهم من كافة الجوانب الاقتصادية والأمنية فكان كالحكومة.

وفي بداية القرن الحادي عشر الميلادي عمل اللوردات على تقديم المساعدة العسكرية التي وفرت الأمن في مناطقهم لفترة من الزمن، فعاد التجار يجوبون طرق أوروبا القديمة من جديد فأقيمت المدن في الطرق التجارية، وأتى الحرفيون إلى المدن ووضعت القوانين وأنشئت المحاكم وتطورت الزراعة، وأزيلت الغابات والمستنقعات، وزادت مساحة الأراضي المستصلحة. وأدى النمو الاقتصادي والصناعي إلى إضعاف نظام الملكية والإقطاع. وأغرى بقيام حكومات وطنية. فأخذ العديد من المزارعين بترك مهنة الزراعة والهجرة للمدينة بحثًا عن مهن أخرى. فأصبحت الطبقة الوسطى تمثل الغالبية في المدن التي نمت وكبرت وازداد عدد السكان فيها، وأصبحت الطبقة الوسطى سندا في بعض الأحيان للملوك ضد اللوردات الإقطاعيين.

لم يكد يهل القرن الرابع عشر الميلادي إلا وقد أدت الحروب والأمراض والمشاكل في أوروبا إلى تمزيق أوروبا مرة ثانية، وكان من نتيجة ذلك انهيار النظام الإقطاعي واندلاع الحروب الأهلية. فكانت حروب بين الإقطاعيين والفلاحين، وحروب المائة عام بين فرنسا وبريطانيا التي امتدت من ١٣٣٧و ١٤٥٣م. فضعف اقتصاد أوروبا وتعطلت التجارة وظهر وباء الطاعون الذي قضى على ربع سكان القارة، هذا غير الجفاف والفيضانات التي أصابت مناطق كثيرة.
كان نتيجة كل هذا أن أوروبا بدأت تخرج من مرحلة العصور الوسطى بسبب قلة اهتمام العلماء بعلم اللاهوت، وأصبح التركيز على فهم اللغة والتاريخ وطبيعة الإنسان التي أصبحت بعد ذلك محورًا للفكر الذي قام عليه عصر النهضة.

كانت الإمبراطورية البيزنطية تعد امتدادًا طبيعيًا للإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد بسط البيزنطيون في القرن السادس الميلادي سيطرتهم على جنوب شرقي أوروبا وعلى إيطاليا وأسبانيا، وكذلك على العديد من دول الشرق الأوسط وعلى امتداد ساحل إفريقيا الشمالي. وبحلول عام ١٤٠٠م انحسرت تلك الإمبراطورية العظيمة بالمناطق المحيطة بعاصمتها القسطنطينية فقط. واستطاع المسلمون في مطلع القرن الثامن الميلادي بعد قرن كامل من الدعوة المحمدية فتح بلاد كثيرة في أوروبا واسيا وإفريقيا. وتمكن المسلمون الأتراك القادمون من أواسط آسيا في القرن الحادي عشر الميلادي من فتح تركيا والشرق الأوسط، وفي القرن الرابع عشر الميلادي جاء الأتراك العثمانيون فسيطروا على هذه المناطق.

ازدهرت أوروبا في عصر النهضة، فعلى مدى ثلاثمائة عام تميز العصر بازدهار الفنون والعلوم والفلسفة حيث اتخذ أولئك الناس الذين عاشوا في عصر النهضة من الثقافتين الإغريقية والرومانية القديمتين نموذجًا يحتذى، وأكدوا على أهمية إنسانية الإنسان. وأسهمت هذه الفلسفة إلى حد بعيد في ظهور مفهوم الديمقراطية. وفي حوالي عام ١٤٤٠م اخترع الطابع الألماني "جوهانس جوتنبرج" الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة، وقد أدى هذا إلى الإسهام في انتشار الثقافة. وفي القرن السادس عشر الميلادي كانت حركة الإصلاح الديني التي قادها الراهب الألماني وأستاذ علم اللاهوت "مارتن لوثر" فكان من نتائجها مولد البروتستانتية واندلاع حرب الثلاثين عامًا التي اشترك فيها العديد من دول أوروبا.

انتشرت البروتستانتية انتشارًا واسع النطاق في أقاليم أوروبا الشمالية، بينما ظل معظم أهل الجنوب على المذهب الكاثوليكي. فأدى هذا الانقسام في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى اندلاع سلسلة من الحروب الدينية بين البروتستانتيين والكاثوليك الرومان التي انتهت بحرب الثلاثين عامًا من ١٦١٨م إلى عام ١٦٤٨م، ولقد شاركت في الحرب دول أوروبية عدة، وفي السنين الأخيرة للعصور الوسطى بدأت القوى العظمى بالظهور.

عمت شهرة أوروبا العالم وامتد نفوذها في عصر الاكتشافات الأوروبية العظمى، الذي بدأ في القرن الخامس عشر الميلادي. فهذا "كريستوفر كولمبوس" البحار الإيطالي الذي كان يعمل في خدمة الأسبان وقد صل إلى أمريكا في رحلته من أسبانيا إلى جزر الهند الغربية عام ١٤٩٢م. كما وأن المستكشف البرتغالي "فاسكو داجاما" قام بأول رحلة بحرية له من أوروبا إلى الهند حول إفريقيا في عامي ١٤٩٧و ١٤٩٨م. وبعد عشرين عامًا كان البحار البرتغالي الذي كان يعمل في خدمة الأسبان "فرديناند ماجلان" بتنظيم أول بعثة اكتشافية حول العالم. كما واشترك العديد من البحارة من دول أوروبا في الاكتشافات التي حصلت في ما وراء البحار. كان من نتيجة هذه الاكتشافات أن أقام الأوروبيون المستعمرات واتسعت تجارتهم فاغتنت الدول الأوروبية وازدادت قوتها. وصار عصر التجربة والبحث العلمي بدلاً من الاعتماد على العقل فقط للوصول إلى الحقيقة. وأصبح الاعتقاد بأن الإنسان قادر أن يتحكم بالطبيعة ويطوعها. وعلى هذا الأساس بدأ الأوروبيون في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بسبب هذه التطورات يقدِّرون قيمة الشعور والأحاسيس والفردية بدلاً من إحساسهم بقيمة الجماعة وقيمة العقل.

وأما "الديمقراطية" و"القومية" فقد ظهرتا كقوتين سياسيتين مؤثرتين في أوروبا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. ونمت الديمقراطية بسبب عصر التنوير وتحديات العصر للسلطة التقليدية. وبالنسبة للقومية فقد انبثقت تدرجا من المشاعر القومية بسبب توحد أفراد كل شعب من شعوب أوروبا في نضالهم من أجل الحكم الديمقراطي الذي يحافظ على حقوقهم.

أما الثورة الفرنسية التي انطلقت في عام ١٧٨٩م واستمرت عشر سنوات، فتعتبر من أكثر الثورات الديمقراطية أهمية في أوروبا في تلك الفترة. فلقد ثارت الطبقتان الدنيا والوسطى الناميتان ضد الملك "لويس السادس عشر"، وتبنت الجمعية الوطنية الفرنسية وثيقة إعلان حقوق الإنسان وحقوق المواطن.

بدأت الثورة الصناعية في بريطانيا خلال القرن الثامن عشر الميلادي بعد اكتشاف الفحم في بريطانيا، ونمت بسرعة فائقة مع تطور الآلات ذات المحرك وأساليب

الإنتاج الحديثة. وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي انتشرت الصناعة في غرب أوروبا. ونتيجة لذلك نمت الطبقة المتوسطة وراحت تتطور الحياة رأسيًا وأفقيًا.ولما أصبحت وسائل الإنتاج حديثة فقد مثلت تهديدًا لأصحاب المهن والحرف اليدوية المعتمدة على المهارة، كما تدفق العمال غير المهرة إلى المدن الصناعية. فازدحمت المدن بالعمال الذين كانوا يتقاضون أجورا متدنية ويعيشون في أوضاع سيئة وفقر مدقع. وفي تلك الفترة ظهر الفيلسوف الألماني "كارل ماركس" صاحب النظرية الشيوعية خلال منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، فحض العمال على الثورة على الرأسمالية، ونادى بإقامة مؤسسات إنتاجية تديرها الدولة، ودعا إلى إذابة الفوارق بين الطبقات في المجتمع. وكان "كارل ماركس" يؤكد حتمية قيام ثورة اشتراكية كنتيجة طبيعية للثورة الصناعية، لكن الثورة لم تحدث في أوروبا الغربية كما توقع كارل ماركس.

بدأت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م في أوروبا بسبب التنافس الاقتصادي بين الدول الأوروبية وتسابقها على إقامة المستعمرات، ثم بسبب رغبة الجماعات القومية في تحقيق الاستقلال لبلادها، ثم كنتيجة لقيام أحلاف عسكرية سرية بين دول أوروبا. فانقسمت أوروبا إلى مجموعتين متصارعتين، مجموعة تضم حلفا من بريطانيا وفرنسا وروسيا ودولاً أخرى، ومجموعة ثانية تضم ألمانيا والمجر والنمسا. دخلت الولايات المتحدة الحرب سنة ١٩١٧م بجانب الحلفاء، وفي نفس العام قامت الثورة البلشفية في روسيا وأدت إلى قيام النظام الشيوعي في روسيا فانسحبت من الحلف. انتهت الحرب في عام ١٩١٨م بانتصار الحلفاء واستسلام ألمانيا، وتم عقد معاهدة فرساي عام ١٩١٩م. وكان نتيجة للحرب أن عدة دول حصلت على الاستقلال، كما أن ألمانيا تحولت إلى جمهورية ديمقراطية.

في عام ١٩٣٩م اشتعلت الحرب العالمية الثانية في أوروبا أيضًا بعد أن استولت ألمانيا على النمسا وتشيكوسلوفاكيا وقامت بغزو بولندا. وكان شركاء ألمانيا في الحرب كل من إيطاليا واليابان وعدد قليل من الدول الأخرى أي دول المحور بزعامة ألمانيا ضد دول الحلفاء التي شملت فرنسا وبريطانيا والاتحاد السوفييتي

سابقًا والولايات المتحدة الأمريكية وعدد من الدول الأخرى. وقد كان لدخول الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الحرب بجانب الحلفاء أثر كبير غير مجرى القتال لصالح الحلفاء بعد أن كان في صالح دول المحور. انتهت الحرب عام ١٩٤٥م بانتصار الحلفاء، لكنها أنهت دور أوروبا كمركز قوة عالمية. وبنهاية الحرب ظهر الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة كقوتين عظميين في العالم، وأصبحت دول أوروبا تعتمد في أمنها واقتصادها على الولايات المتحدة الأمريكية، وقسمت ألمانيا إلى دولتين شيوعية في الشرق ورأسمالية في الغرب، ومن هنا كانت فترة الحرب الباردة بين الغرب والشرق أي بين العالم الحر بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية والمنظومة الاشتراكية بقيادة روسيا.

هذا، وابتدأ مشروع وحدة الدول الأوروبية في سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية في شكل منظمات. المجلس الأوروبي عام ١٩٤٩م وكان الهدف منه ترابط الدول الأعضاء ثقافيًا واجتماعيا واقتصاديًا. وكانت أيضًا المجموعة الأوروبية للفحم الحجري والفولاذ عام ١٩٥١م وكان الهدف تطوير صناعة الفحم الحجري والحديد والفولاذ في بلجيكا وفرنسا وإيطاليا ولوكسمبرج وهولندا وألمانيا الغربية. عام ١٩٥٧م اتفقت الدول الست على تكوين جماعة الطاقة الذرية الأوروبية (أوراتوم) لتطوير الطاقة النووية للأغراض السلمية. وصارت الدول الست الأعضاء تُعرف بالمجموعة الأوروبية، وأصبحت هذه المجموعة الأوروبية للفحم الحجري والفولاذ والجماعة الاقتصادية الأوروبية مجتمعتين تعرفان بالسوق الأوروبية المشتركة. عام ١٩٧٣م انضمت إلى المجموعة الأوروبية كل من بريطانيا والدنمارك وأيرلندا ثم انضمت اليونان للمجموعة عام ١٩٨١م، ولحقت البرتغال وأسبانيا عام ١٩٨٦م واتسعت المجموعة بعد توحيد شطري ألمانيا عام ١٩٩٠م. والآن لأوروبا منظمة أبحاث الفضاء الأوروبية (وكالة الفضاء الأوروبية) بهدف إنشاء برامج أبحاث فضائية مستقلة. وجرى إنشاء الاتحاد النقدي الأوروبي واتخذ "اليورو" عملة مشتركة للدول الأعضاء، وأصبح اليورو العملة الرسمية اعتبارا من عام ٢٠٠٢م.

▪ الأيديولوجية

الأيديولوجيا كعقيدة سياسية أو فكرية يمكن ترجمتها إلى فكرانية باعتبارها مجموعة منظمة من الأفكار تشير إلى رؤية متماسكة شاملة وطريقة لرؤية القضايا والأمور التي تتعلق بمناح فلسفية سياسية بشكل خاص.
تقول الدراسات المختلفة، إن الأيديولوجية نشأت كظاهرة اجتماعية تاريخية في أحضان الدين، وكانت أول مؤشر على وعي الإنسان حيث تنازعها الفلسفة والعلم، وعلى هذا الأساس بقيت بعض أوجه اتفاق بين الدين والأيديولوجية تتمثل في أن كليهما يهدفان للتأثير على سلوك الإنسان من ناحية تشكيله ويختلفان في طريقة تشكيل هذا السلوك. الدين يركز على سلوك البشر وممارستهم للحياة اليومية، أما الأيديولوجية فتركز على تحريك الجماهير لبلوغ الأهداف الاستراتيجية ليس كأفراد وإنما كجماعات منظمة ومسيسة.

أول من استعمل مصطلح الأيديولوجية، هو، الفيلسوف الفرنسي ديستات تريسي (١٧٥٥-١٨٣٦) في كتاب "عناصر الأيديولوجية". وقد عنى تريسي بالأيديولوجية أنها علم الأفكار التي تبنى منها النظريات والفرضيات لأعضاء المجتمع. ومع توسع استعمال هذا المصطلح جرى تطبيق الاصطلاح على الأفكار والعواطف والمواقف السياسية، التي يلتزم ويتقيد بها رجال السياسة والمفكرون السياسيون إلى درجة كبيرة بحيث تؤثر على كلامهم وسلوكهم السياسي وتحدد إطار علاقتهم السياسية بالفئات والعناصر الأخرى.

الأيديولوجية من ناحية أخرى، هي الرؤية الشاملة والمعتقد وما بينهما من أفكار وقناعات يختزنها جماعة من الناس في اللاوعي في قالب واحد، لها مصداقية أو عقلانية في عقولهم ووجدانهم ونفوسهم ويؤمنون بها حتى يظنون بألاّ حقيقة غيرها. الأيديولوجية هي أيضًا بطريقة أخرى كل مظاهر النشاط والإنتاج الفكري والروحي في المجتمع.. الأيديولوجية أقرب ما تكون إلى الثقافة المهيمنة أو الثقافة التلقائية للمجتمع لأنها تزود المجتمع والأفراد بهويتهم الجماعية المميزة.

والأيديولوجيات بصفة عامة تتبدل أو تتطور مع الأيام والأزمنة بسبب الأحداث الجسام والكوارث كالحروب والانهيارات الاقتصادية. توجد مسميات للأيديولوجيات كالفاشية التي تعتمد على خلق نظام شمولي مسيطر، وكذلك الأيديولوجية النازية العنصرية التي تقوم على تمجيد وطنية معينة، والأيديولوجية القومية العنصرية التي لا تمجد عرقا أو شعبا معينًا وهي هنا لا تختلف عن النازية. كذلك توجد الأيديولوجية الفاشية الطبقية كالشيوعية والاشتراكية التي فيها تسيطر طبقة اقتصادية في المجتمع أو الدولة وتلغي الطبقات الاقتصادية الأخرى.
هذا، ومن أشهر الأيديولوجيات التي تؤمن بالفرد المجرد، الأيديولوجية الرأسمالية والأيديولوجية الليبرالية، وهما تعتقدان بأن وجود الدولة يجب أن يكون لخدمة الفرد وتطلعاته بما في ذلك ضمان حريته وممتلكاته ولا شيء غير ذلك.

كما توجد الأيدويولوجية التي تعتمد على فكرة الأرض والوطن مثل "القومية العربية" وغيرها. وتوجد الأيديولوجيات الدينية التي تهدف إلى سيطرة جماعة دينية مثل بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة والحركة الصهيونية، ولأنها متعددة ومتنافسة فهي إحدى أكثر الأيديولوجيات الفاشية تنوعا. وفي العصر الأخير بدأت تظهر أيديولوجيات تتبنى أفكارا جديدة أخذت تنمو في الدول المتقدمة مثل حركة السلام العالمي، والمحافظة على البيئة.

الأيديولوجيات بصفة عامة حينما توجد تبدو واضحة وناصعة ونقيضة للأيديولوجيات التي تسبقها في التكوين كالفرق بين الأبيض والأسود. فقد وجدت الأيديولوجية الاشتراكية فرصة لها في الوطن العربي في منتصف القرن العشرين على يد نخبة من العقائديين العرب، فلم تجد قبولا لدى الجماهير العربية بسبب خصوصية الثقافة العربية، فكان الاختبار للأيديولوجية الاشتراكية هو أن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي استولى على الحكم في قطرين مهمين من البلاد العربية سورية والعراق، فشل في إقامة الوحدة بينهما. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية نهضت الأيديولوجية الدينية في الوطن العربي لكي تسد الفراغ الذي خلفه تراجع اليسار الاشتراكي وذاع صيتها وبرز لها جماعات

وقادة وأصبحت ظاهرة في الشارع العربي، وكان من مظاهرها لجوء الناس للتعبد وانتشار الزي الإسلامي الممثل بالحجاب للمرأة.

لكن الغرب قام بإتباع هجمة إعلامية دعائية سافرة بأيديولوجياته "الرأسمالية والليبرالية" على الاشتراكية والشيوعية، واصطدم بطبقة الأيديولوجية الإسلامية حتى تمكن من فصلها عن بيئتها الاجتماعية وأقنع الشعوب والأنظمة العربية بالتبرّؤ منها ومحاربتها. استخدم الغرب في حربه الدعائية خطاب حقوق الإنسان وحرية التعبير والديمقراطية وحرية الاقتصاد، واستطاع التغلب على هذه الأيديولوجيات الطبقية وجعلها ساكنة أو مختفية لكنها لم تمت، وهنا كانت حيرة الخبراء في الغرب الذي تقوده الولايات المتحدة، الذين يظنون أن الأيديولوجية الجهادية الإسلامية ما هي إلا أيديولوجية فاشية تعتمد على فكرة الدين الإسلامي نفسه، فهم يجهلون أنها مجرد أيديولوجية سياسية وليست دينية في الأصل. وكذلك فإن الأيديولوجية في الغرب تحولت إلى مصالح حزبية، والأيديولوجية الدينية العربية تحولت إلى ظلامية تعادي الحضارة وتعتمد على توجيه الكراهية للخارج فقط للتخفي خلف عيوبها.

الأيديولوجية في العموم مهما اختلفت أسماؤها وتنوعت قيمها ومبادئها وأهدافها، هي حيز من البناء الذهني للفرد والجماعة ما كان الإنسان مرتبطًا بزمن ومحصورًا في مكان معين، فلا يستطيع الإنسان أن يفهم ويتعامل مع محيطه الاجتماعي إلا إذا كان لديه غطاء فكري معين، وهو ما يسمى بالأيديولوجية المهيمنة في النهاية، التي ليس من الضروري أن تكون طرحا فكريا متكامل الأركان والنظام، كالشيوعية والقومية وما شابههما، وإنما تكون مجرد الفكرة المحورية التي تعطي الأشياء المحيطة المعنى والحجة للفرد في خصوصيته وللجماعة حينما تبحث عن فهم معين بين عدة مفاهيم أخرى.

المشكل الرئيسي في الأيديولوجيات، هو، أن معتنقيها يظنونها نهاية الحقيقة ونهاية التاريخ، وهو نقطة ضعفها لأن الصراع مع الآخر ليس حقيقة تاريخية مطلقة، وإنما هو مرحلة لا تستمر أبد الدهر. وبذلك يظل تشبث القومية بالفكرة

مبقيها في حالة ضعف لأن أفكارها تظل أسيرة الانغلاق، ويكون واقع الحال قد تجاوز فكرتها. فالأيديولوجية الشيوعية قضت بإلغاء نفسها وفق ذات الآليات التي جعلت منها قوة ليس من الأفكار التي حملتها الشيوعية وإنما من تفاعل تلك الأفكار مع الواقع الاجتماعي الروسي في بدايات القرن العشرين، وكانت تلك الأفكار بعد ذلك السم البطيء الذي ضحى بواقع الحال فسقطت الأيديولوجية الشيوعية، وهو ما حدا بالشيوعية الصينية بتغيير حالها قبل أن يصيبها مرض السقوط ، وذلك لأجل استيعاب المتغيرات قبل أن تبتلعها تلك المتغيرات. فظروف المتغيرات هي التي تصنع أبطالها كما الأبطال يصنعون الظروف حتى لو كانت الفكرة واحدة.

من واقع الحال والظروف التي مر بها أصحاب الأيديولوجيات الكبرى في التاريخ، أتى "فرنسيس فوكوياما" بمقولة نهاية التاريخ. وأعلن انتصار الليبرالية والديموقراطية ليس لأنها من طبيعة الأمور، لأن الأمور في النهاية لا طبيعة لها إلا ما نفترض نحن أنه طبيعة لها أو أنها غير مؤدلجة أو ناكرة للأيديولوجية لأنها أيديولوجية في النهاية، بل لأنها أيديولوجيا مستوعبة لكافة الأيديولوجيات، بل يمكن القول إنها أيديولوجية الأيديولوجيات من هذه الزاوية. إن قوة الليبرالية تكمن في أنها تقوم على فكرة التسامح والتعايش بين مختلف الأيديولوجيات والاتجاهات والنظرات. كانت مشكلة الأيديولوجيات وخاصة تلك الكبرى التي عرفها التاريخ كالشيوعية والإسلامية وغيرهما تكمن في كونها نافية لبقية الأيديولوجيات. يمكن أن يكون ذلك ضروريًا لتحقيق أهداف معينة في مرحلة معينة من مراحل التاريخ، لكن ما تكاد المرحلة تنتهي حتى تتحول الأيديولوجية إلى دكتاتورية وتنفي الآخر. في حين أن الليبرالية تبقى نصًا مفتوحًا، على عكس النصوص المغلقة في بقية الأيديولوجيات، وهو سر انتصار الليبرالية في صراعها مع بقية الأيديولوجيات، مما أوحى ل"فرنسيس فوكوياما" وغيره بالقول بنهاية التاريخ، وهو يعني موت الأيديولوجية، والليبرالية هي الحقيقة. الليبرالية ولو نظريًا على الأقل تعني بداية للتاريخ بدون أيديولوجية. وبوضوح أكبر يمكن القول إن الليبرالية من وجهة نظر فوكوياما هي أيديولوجية واعية بذاتها الأيديولوجية من حيث وعي القائلين بها، وأن كل شيء ممكن فالأفضل هو القادم، وهذا مصدر قوتها. ولكن هذا التفسير

يدحضه الآخرون بحجة ليست أقل إقناعا من حجة القائلين بنهاية التاريخ كون التاريخ ببساطة مستمر ولم ينتهِ، والأيديولوجية الليبرالية ما هي إلا نظرية واحدة في التاريخ الإنساني الذي يحمل في رحمه الكثير.

وذاك كان فيما يخص الأيديولوجيات السياسية، وأما الأيديولوجيات الثقافية فإن لكل أمة حدثًا ثقافيًا تاريخيًا مؤسسًا. المرجع الأساسي للعرب والمسلمين كدول وكأمة هو عهد النبي صلى الله عليه وسلم الفاصل بين عهدين، عهد الظلام والجهالة، وعهد النور والهدى. أما بالنسبة للدول الأوروبية فالحدث المؤسس هو ظهور المسيحية ونشوء الدول المسيحية. لكن هذه المرجعية تضاءلت كثيرًا مع استمرار الفصل بين السلطتين الزمنية والروحية في أوروبا. لذلك نجد أن هناك مفاصل في تاريخ كل أمة حسب متطلبات حاضرها ومقتضياته .

من عادة أصحاب الأيديولوجيات أن يقوموا بعمليات تجميل للذات وتمجيدها بواسطة تقبيح الخصوم أو الأعداء أو المغايرين، فنجاح أية أيديولوجية وصلابتها الذاتية لا تكتسب إلا على أشلاء الآخر، لأنها تحتاج دومًا إلى خصم (إلى آخر) لكي تُسقط عليه كل الصور السلبية المترسبة في الذاكرة والوجدان. وتلك هي المهمة الأساسية لكل أيديولوجيا، التي هي مكون أساسي في المجتمع. المجتمع لا ينشأ من وجود الناس في مكان ما، ولا ينشأ من عصبية أو تحالف قوى، ولا من وجود سلطة تحكم، وإنما من وجود أيديولوجية جماعية لأن الوطن دون أيديولوجية ليس أكثر من أرض.

خلال حركة تطور المجتمعات الإنسانية تمر بمراحل تاريخية يكون فيها الدين والأيديولوجية شيئًا واحدا فيتوحد النسقان الديني والأيديولوجي، فيكون الفكر التربوي الموجه للعقل والسلوك ذو ذا طابع ديني، ويصعب الفصل بين ما هو من صميم المعتقد الديني والمبادئ الدنيوية الموجهة لأفراد المجتمع في تعاملاتهم ووظائفهم الاجتماعية لذلك تكون جميع النصوص ملزمة. ومع تطور حياة المجتمع وتنوع الوظائف والأعمال والأدوار الاجتماعية فيه، يحدث نوع من التباين والتمايز بين أنماط الفكر، ويحدث تمايز بين المؤسسات الاجتماعية الدينية وبين المؤسسات الأيديولوجية.

في العصر الحديث أصبح يكتسب النسق الأيديولوجي وجودًا مستقلاً عن النسق الديني، فصار الدين يمثل القاعدة المعنوية، وما هو أيديولوجي يصاغ لتوجهيه المصالح وليست الصياغة الدينية لتبريره اجتماعيًا. لهذا انبرى المحللون يشيرون إلى أوجه الاختلاف بين الدين والأيديولوجية وذهبوا للتأكيد على أن الدين كمعتقدات وشعائر وتشريعات لا يمكن اختزاله إلى مجرد أيديولوجية لأن النصوص الدينية مقدسة. أما الأيديولوجية فلا تحتمل التقديس لأنها تظل دائمًا موضع نقد وتعديل وإلغاء كلما تطلب الأمر ذلك لأن مبدعيها بشر قد يصيبون وقد يخطئون وليس لأفكارهم سواء عند خصومهم أو عند مؤيديهم أية حصانة. فالخطاب الديني أبدي وأزلي يأمر وينهى، يحلل ويحرم ويقيم الحدود كما في الماضي والحاضر والغد. أما الأيديولوجية فتحتمل التصديق والتكذيب وتصديقها نسبي وأهدافها مادية.

إذن يتوقف الأمر على طبيعة المجتمع من ناحية درجة تطوره ومقدار التمايز والتكامل بين النسق الديني والأيديولوجي. في الدولة الدينية يصل هذا التكامل إلى حده الأقصى، كما يصل التمايز والانفصال في الدولة العلمانية إلى حده الأقصى أيضًا حيث ينفصل الدين عن السياسة أي لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين. الأيديولوجية الإسلامية السلفية تمزج بين ما هو ديني وما هو سياسي. وفي المجتمعات العربية يوجد النسق الديني الذي يقوم بالمهمات الاجتماعية للأيديولوجية وكذلك للوظائف الروحية الأساسية، ورغم أن معظم الحكام العرب ليسوا من المؤسسة الدينية إلا أنهم لا يستطيعون الاستمرار إلا إذا وجد من يسمون بشيوخ السلاطين كركيزة لدعم حكمهم. بل لا يوجد مجتمع إنسانى في هذا العصر وإن كان علمانيا، إلا واحتاجت السلطة السياسية فيه إلى دعم ديني، ونلمس هذا بسهولة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، فرغم تراجع الكنيسة وفصل الدين عن الدولة بالقانون فلم يزل للدين قوة لا يمكن إغفالها. هذا، ورغم وجود الأيديولوجيات الكبرى كالليبرالية والماركسية كبديل للدين، فقد ظل الدين مؤثرًا بدرجات في المجتمعات المتطورة في العبادات والسياسات وحتى في أسماء الأحزاب السياسية، "الحزب الديموقراطي المسيحي" في ألمانيا مثلاً.

▪ الرأسمالية

الرأسمالية ببساطة دون التوسع في التسميات والمصطلحات والنظريات، هي: نظام اقتصادي فيه وسائل الإنتاج بشكل عام مملوكة ملكية خاصة أو مملوكة لشركات خاصة. والتوزيع والإنتاج وتحديد الأسعار في النظام الرأسمالي محكوم بالسوق الحر وبالعرض والطلب، ومن حق الملاك الاحتفاظ بالأرباح أو إعادة استثمارها متى شاءوا. وحسب التعريف الدارج فإنه يطلق على النظام الرأسمالي اسم اقتصاد السوق (العرض والطلب).
والرأسمالية حسب الحتمية التاريخية، هي، ثمرة التطور الصناعي والنقلة النوعية في وسائل الإنتاج في العصر الإقطاعي إلى الوسائل المتطورة في الثورة الصناعية. فبعد التوسع في الإنتاج بدأت الرأسمالية بالظهور من خلال تكوين الشركات الكبرى ودفع هذا إلى البدء بالقيام بالحملات العسكرية الهادفة لاحتلال أراضي الآخرين وتأمين أسواق لتلك الشركات. هذا، وتؤمن الأنظمة الرأسمالية بالفكر الليبرالي أي الرأسمالية كاقتصاد والديمقراطية كسياسة.

والنظام الرأسمالي بتعريف آخر، هو، نظام اقتصادي له فلسفة اجتماعية وسياسية تقوم على أساس تنمية الملكية الخاصة استكمالاً لتعزيز حرية الفرد والمحافظة عليها متوسعًا في مفهوم الحرية. وتزداد أهمية مفهوم الملكية الفردية في النظام الرأسمالي ويوصف دور الحكومة فيه على أنه دور رقابي فقط. لكن الاقتصادي البريطاني "جون كينياس" أتى في منتصف الثلاثينات من القرن العشرين بنظرية اقتصادية نسبت إليه، عبر فيها قائلا ما معناه، إن الاقتصاد الرأسمالي غير قادر على حل مشاكله بنفسه، وإن هناك أوقات كساد اقتصادي مثل الكساد الاقتصادي في الدول الغربية الذي حدث في ثلاثينات القرن العشرين، والكساد الذي بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية عام ٢٠٠٦م. قيل عن نظرية جون كينياس التي اهتمت بها كبرى الدول كالولايات المتحدة الأمريكية، بأنها وضعت الرأسمالية أقرب إلى الاشتراكية.

ولما كانت أوروبا محكومة بنظام الإمبراطورية الرومانية التي ورثها النظام الإقطاعي، فقد ظهرت ما بين القرن الرابع عشر والسادس عشر الطبقة البرجوازية تالية لمرحلة الإقطاع ومتداخلة معها، وتلت مرحلة البرجوازية مرحلة الرأسمالية منذ بداية القرن السادس عشر ولكن بتدرج. وعلى ذلك ظهرت أولاً الدعوة إلى الحرية، والدعوة إلى إنشاء القوميات اللادينية، والدعوة إلى تقليص نفوذ البابا والكنيسة الروحي. وعليه فإن الرأسمالية التجارية ظهرت في القرن السادس عشر أثر إزالة الإقطاع، إذ أخذ التاجر يقوم بنقل المنتجات من مكان إلى آخر حسب طلب السوق فكان بذلك وسيطًا بين المنتج والمستهلك. وظهرت الرأسمالية الصناعية بسبب تقدم الصناعة وظهور الآلة البخارية التي اخترعها "جيمس وات" سنة ١٧٧٠م والمغزل الآلي سنة ١٧٨٥م مما أدى إلى قيام الثورة الصناعية في إنجلترا خاصة وفي أوروبا عامة إبان القرن التاسع عشر.

هذا، ويعتبر المذهب الطبيعي الأساس الذي تقوم عليه الرأسمالية كونه يقر بأن الحياة الاقتصادية تخضع لنظام طبيعي ليس من وضع أحد حيث يحقق بهذه الصفة نموًا للحياة وتقدمًا تلقائيًا لها. كما أن المذهب الطبيعي يدعو إلى عدم تدخل الدولة في الحياة الاقتصادية وأن تقصر مهمتها على حماية الأفراد والأموال والمحافظة على الأمن والدفاع عن البلاد.

إن إيمان الرأسمالية بالحرية الواسعة أدى إلى فوضى في الاعتقاد وفي السلوك مما تولدت عنه هذه الصراعات الغربية التي تجتاح العالم معبرة عن الضياع الفكري والخواء الروحي. إن التضخم المطرد في تكلفة المعيشة دفع الأسرة لأن يعمل كل أفرادها مما أدى إلى تفكك عرى الأسرة وانحلال الروابط الاجتماعية فيما بينها. وفي ظل هذا التذبذب بين عشق الحرية الفردية والتقدم الصناعي ظهرت مطالب للعمال، فكان أن أخذت الدول الرأسمالية في الولايات المتحدة الأمريكية واليابان وألمانيا وأنجلترا وفرنسا بالتدخل في الشؤون الاقتصادية، وذلك لتحسين المسار والتقليل من الأضرار وتلبية الحاجات. وقد تمثل تدخل الدول في المواصلات والتعليم ورعاية حقوق المواطنين وسن القوانين ذات الصبغة الاجتماعية،

كالضمان الاجتماعي والشيخوخة والبطالة والعجز والرعاية الصحية وتحسين الخدمات ورفع مستوى المعيشة. وكان سبب هذا التوجه الإصلاحي الجزئي ظهور العمال كقوة انتخابية في البلدان الديمقراطية، وبسبب لجان حقوق الإنسان، وبسبب الرغبة في وقف المد الشيوعي بعد عام ١٩١٧م الذي كان يدعو إلى نصرة العمال ويدافع عن حقوقهم ومكتسباتهم.

▪ العلمانية

كان أول ظهور للعلمانية هو ظهورها في فرنسا أواسط القرن الثامن عشر، فهي في الأصل منتج ثقافي واجتماعي أوروبي. بعد فرنسا انتشرت العلمانية في باقي دول العالم. وقد كان ظهورها نتيجة ظروف دينية واجتماعية وسياسية واقتصادية عامة في أوروبا، فكانت في حقيقة تجليها كانتفاضة للنخب العلمية والثقافية ضد طغيان الكنيسة الذي جاوز الحدود في الإصرار على الوصاية على العقول والضمائر، وتحدي المعقولات والاكتشافات في مجالات الحياة المختلفة. على الأثر سقطت الخرافات والأساطير الكنسية، وكان الثمن فادحا حيث جرى نبذ الدين والمقدسات، وظهرت أوروبا العلمانية بدلاً من أوروبا المسيحية. إن مصطلح العلمانية هو ترجمة لكلمة "سيكولاريزم Secularism " الإنجليزية، وهي مشتقة من كلمة لاتينية "سيكولوم" Saeculum وتعني العالم أو الدنيا أو اللادينية. ومصطلح العلمانية (Secularism) هو ترجمة محترمة وأقل استفزازا من الترجمة الصحيحة لمعنى كلمة «اللادينية» أو «الدنيوية»، والتي هي دعوة لإقامة الحياة على أساس العلم والعقل ومراعاة المصالح دون استشارة الدين، وتعني في الجانب السياسي فصل الدين عن السياسة، وجوهر اللادينية هو إبعاد الدين عن الدولة وحياة المجتمع وإبقائه في ضمير الفرد كعلاقة بينه وبين ربه، ويمكن ظهوره في العبادة ومراسم الزواج والوفاة وما شابه.

تقول دائرة المعارف البريطانية في تعريفها للعلمانية (secularism) بأنها حركة اجتماعية تهدف إلى جعل الناس يهتمون بالدنيا بدلاً من الاهتمام بالآخرة فقط

بسبب أن الناس في العصور الوسطى كان لديهم عزوف عن الدنيا ويهتمون بالآخرة فقط والتأمل في الله واليوم الآخر. وبسبب ظهور الشيوعية والاشتراكية ثم فشلهما ارتفعت أسهم العلمانية تحت شعار الديمقراطية "الدين لله والوطن للجميع" أي لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين كما الأيديولوجية الليبرالية عموما. لكن الدكتور عبد الوهاب المسيري في شرح مطول شيق يقول عن مصطلح العلمانية ، إنه "غير محدد المعاني والمعالم والأبعاد".

والعلمانية نوعان جزئية وشاملة، أما العلمانية الجزئية فهي التي لا تتعامل مع الأبعاد الكلية للمعرفة، وتكتفي بفصل الدين عن السياسة وإلى حد ما عن الاقتصاد، فهي لا تنكر وجود أمور مطلقة وغيبيات، لهذا سماها البعض، العلمانية الأخلاقية أو العلمانية الإنسانية. وأما العلمانية الشاملة فهي أكثر صراحة وصرامة لأنها ترى الواقع دون العلاقة مع الدين والقيم المطلقة والغيبيات، وعنها ظهرت نظريات ترتكز على البعد المادي للكون، وأن المعرفة المادية هي المصدر الوحيد، والإنسان يغلب عليه الطابع المادي لا الروحي. لهذا أطلق على العلمانية الشاملة "العلمانية الطبيعية المادية". الفرق بين العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة هو الفرق بين المراحل التاريخية للعلمانية، فمع تطور المراحل التاريخية أصبحت الدولة تشكل الرؤية الشاملة لحياة الإنسان بعيدًا عن الغيبيات.

تجلت العلمانية في أنها اقتحمت كل مجالات الحياة، فاختفى العيب والخجل، وأصبح لا قيمة كثيرًا للقيم، فصار الإنتاج وتحقيق الأهداف هما الأهداف النهائية للفرد والدولة، فظهرت الدولة العلمانية في الداخل والاستعمار العسكري الأوروبي في الخارج والهدف هو تحقيق الزيادة في الإنتاج. ثم تطور مفهوم العلمانية إلا أنه ما زال سياسيًا واقتصاديًا أيضًا حيث استبدل بالاستعمار العسكري أشكالا أخرى من الاستعمار كالاقتصادي والثقافي وصار الاتجاه نحو الاستهلاكية غير العادية.

لقد وصلت العولمة إلى آفاق بعيدة مع مرور الحقبات، ففضلاً عن معدلات التضخم في الإنتاج وظهور الشركات المتعددة الجنسيات والمؤسسات غير الحكومية، نجد أن قضايا التحرر والاستعمار راحت تختفي ويحل بديلاً عنها مشاكل البيئة ومرض

الإيدز والثورة المعلوماتية، وعليه راحت تضعف مؤسسة الأسرة وصارت تأخذ أسماء مكونات جديدة، مثل، رجلان وأطفال، وامرأة وأطفال، وامرأتان وطفل، وهذا نتيجة لغياب الثوابت والمعايير الأخلاقية التي تحكم المجتمع، وبسبب وجود البدائل نتيجة التطور التكنولوجي الباذخ الذي لم يستثن مجالاً.

هذا، ورغم أن العلمانية أول ما ظهرت في أوروبا إلا أنها انتقلت أيضًا إلى مناطق كثيرة في العالم ومنها الوطن العربي باعتبار أنه لا يوجد للفكر حدود. المفكر المغربي "محمد عابد الجابري" رفض تعريف مصطلح العلمانية باعتباره مجرد فصل الدين عن الدولة لعدم ملاءمته للمجتمع العربي الإسلامي، وهو بهذا يفسر مصطلح العلمانية بفكرة الديمقراطية أي كأن الجابري يقصد أن العلمانية مخزن محتوياته متنوعة، فليأخذ كل مجتمع ما يريده منه.. المجتمع العربي يريد الديمقراطية العربية التي تراعي خصوصية الثقافة العربية كما المجتمعات الديمقراطية الأخرى التي تضبط إيقاع ديمقراطيتها حسب ثقافتها الخاصة.
كما تناول عدة مفكرين آخرين عرب موضوع العلمانية مثلما أبدى الجابري رأيه.. جميعهم حاولوا تقنين معنى مصطلح العلمانية بما ينفع المجتمع العربي ولا يعتدي على قيمه، من هؤلاء: د.وحيد عبد المجيد؛ الباحث المصري ـ د.فؤاد زكريا؛ أستاذ الفلسفة ـ د. مراد وهبة؛ أستاذ الفلسفة ـ الكاتب السوري هاشم صالح.

▪ الاشتراكية Socialism

نشأت فكرة الاشتراكية على مدى مرحلتين، الأولى كانت منذ عهد الفيلسوف "أفلاطون" الذي حلم في تكوين مجتمع مثالي يكون فيه الناس سواسية بحيث يختفي من المجتمع الظلم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. وبقيت هذه الأفكار في ذهن البشرية من الفلاسفة والمفكرين على مر العصور. وفي القرن التاسع عشر دخلت الاشتراكية العلمية بواسطة "كارل ماركس" الذي قام بوضع أسس الاشتراكية، وكان الهدف تعويض مبادئ الرأسمالية. الاشتراكية نظام اقتصادي اجتماعي عالمي يقوم على تملك المجتمع لوسائل الإنتاج الأساسية، وذلك لأجل

تلبية حاجات المواطنين على الوجه الأمثل. القاعدة الاقتصادية الأساسية في هذا النظام، تقوم على إلغاء التقسيم الطبقي في المجتمع، وإلغاء استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، والهدف هو تحقيق العدل والمساواة بين أفراد المجتمع. هذا وتعددت المذاهب والنظريات التي تقلبت مع الفكر الاشتراكي، إلا أن النظرية "الماركسية-اللينينية" وحدها هي التي نقلت هذا الفكر إلى الواقع وجرى تطبيقها، فكانت الأساس الذي قامت عليه الأنظمة الاشتراكية التي سادت بلدان عدة في القرن العشرين، ولهذا فإن البحث في أسس النظام الاشتراكي ومرتكزاته المقصود منه جوهر هذه النظرية.

كانت الأفكار التي احتوتها ورقة "كارل ماركس" و"فردريك إنجلز" في وصف الشيوعية، هي من مثلت الشيوعية كحركة ثورية، وقالت إنه ليس بالضرورة أن تتبلور الحركة في بقعة معينة من العالم، لكنها يمكن أن تحدث في العالم كله. وصف الرجلان التاريخ بحلوه ومره بأنه صراع طبقي في المجتمع، وعليه فإن في كل مجتمع توجد طبقة صغيرة متنفذة تشرف على الإنتاج والعطاء في حين أن السواد الأعظم من المجتمع يسهم إسهاما قليلاً في عجلة الاقتصاد والإنتاج. وفي تلك الورقة المعنوية يسهب الرجلان ويشيران إلى كيفية استغلال البرجوازيين للطبقة الكادحة، وذلك بشراء أرباب الأعمال وقت العامل عن طريق دفع أجر مقطوع لهذا العامل ومن ثم بيع رب العمل للسلعة التي ينتجها العامل بفارق سعر أو ربح. كان يعتقد كارل ماركس أنها مجرد مسألة وقت يعي فيها عمال العالم الأهداف المشتركة في تحقيق العدالة الاجتماعية عن طريق الثورة التي ستطيح بالطبقة البرجوازية.

"فلاديمير لينين": يعود له الفضل في تأسيس التدابير الثورية، ووضع أسس تنظيم الأحزاب الشيوعية، وهو أول من قام بثورة شيوعية وارتبط اسمه باسم الشيوعية حيث أصبحت الأحزاب الشيوعية تنتهج الماركسية اللينينية، وأصبح اسم الماركسية يعبر عن أيدولوجية الأحزاب الشيوعية، ويعبر اسم اللينينية عن أسس التنظيم والعمل في الأحزاب الشيوعية. أما كلمة "الشيوعية فهي من كلمة مشاعية في مفهوم الماركسيين والشيوعيين أي مشاعية الملكية للأرض ووسائل الإنتاج.

يرى الشيوعيون أن الشيوعية عبارة عن مرحلة تاريخية تتلو الاشتراكية. وحسب أدبيات الحزب الشيوعي فإن الفرق بين الشيوعية والاشتراكية يتلخص: في النظام الاشتراكي يكون عمل لكل شخص في المجتمع حسب جهده. وفي النظام الشيوعي لكل شخص عمله حسب حاجته. هذا، ولم تعش المنظومة الاشتراكية (الاتحاد السوفيتي) لكي تطبق في أي بلد من بلدان العالم.

هذا، وتتعارض الاشتراكية تعارضًا تامًا مع الرأسمالية. فالقضاء على الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج يؤدي إلى تغيير البنية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمع. فبعد أن كان الهدف من الإنتاج في النظام الرأسمالي تحقيق الربح لأصحاب الأعمال من خلال استغلال الطبقة العاملة والكادحين، أصبح الهدف من الإنتاج في النظام الاشتراكي هو تلبية حاجات أعضاء المجتمع المادية والروحية، ووضع حد للاستغلال، ومن لا يعمل لا يأكل، وبذلك يوضع حد للتناحر في المجتمع وتتوحد مصالح المنتجين والعاملين.

السلطة السياسية في النظام الاشتراكي تكون في يد المنتجين والعمال بقيادة حزب طليعي يقود الدولة والمجتمع. وتحل القضايا الاجتماعية الأساسية بمشاركة جماهيرية وديمقراطية واسعة توفرها المنظمات الشعبية. إذا استثنينا الأحزاب الماركسية اللينينية الموجودة في العالم، فإن أحزابا وطنية وقومية كثيرة تؤمن بالاشتراكية، وتعدّها هدفًا رئيسًا من أهدافها تسعى لتحقيقه في أوطانها. من تلك الأحزاب على سبيل المثال ما ذكر في المادة الرابعة من دستور «حزب البعث العربي الاشتراكي» التي تنص على أنه حزب «اشتراكي يؤمن بأن الاشتراكية ضرورة مُنبعثة من صميم القومية العربية، كونها النظام الأمثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق إمكاناته.

جرى تطبيق النظام الاشتراكي أولاً في الاتحاد السوفيتي السابق بعد انتصار الثورة البلشفية في روسيا سنة ١٩١٧م. وظهرت المنظومة الاشتراكية بعد الحرب العالمية الثانية وما تمخض عنها من نتائج. وتجدر الإشارة إلى أن تكون المنظومة الاشتراكية من عدة دول في أوروبا الشرقية بالإضافة إلى روسيا تم نتيجة الوجود

العسكري السوفييتي في تلك الدول، وليس بسبب تطور القوى المنتجة في تلك البلدان وأصبح معه التحول إلى الاشتراكية ضرورة موضوعية.

وإن كان لنا أن نضيف سطورًا قليلة عن الشيوعية بسبب ارتباطها بالاشتراكية باعتبار الأخيرة مجرد وسيلة أو مرحلة للوصول إلى غاية، فإن الشيوعية هي المرحلة الثانية أو الأعلى من التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية التي لم تتحقق بعد. تهدف الشيوعية إلى تحويل كل إنسان إلى مبدع ويكون النشاط البشري نشاطًا ذاتيًا. وهذا يعمل على قيام علاقات جديدة بين أفراد المجتمع، فيصير لكل منهم مصلحة في تطوير الآخر. إن مستوى التطور في الإنتاج في الشيوعية أرفع مما هو عليه في الاشتراكية، وهذا يعمل على توفر الحاجات المادية للناس. وإن كانت الملكية الاجتماعية لوسائل الإنتاج في مرحلة الاشتراكية تبدو في شكلين أساسيين، هما الملكية العامة (الحكومية) والملكية التعاونية (المزارع الجماعية)، ففي الشيوعية تقتصر على الملكية الشعبية العامة الوحيدة لوسائل الإنتاج.

▪ الشعوبية

الشعوبية حركة عنصرية بذورها كانت في العصر الأموي، وظهرت على السطح في بدايات العصر العباسي. هي حركة عنصرية.. المهللون لها هم من يرون أن لا فضل للعرب على غيرهم من العجم. وقد تصل أحيانًا من الحقد والتقليل من شأن العرب إلى حد تفضيل العجم على العرب والانتقاص منهم. قال – الزمخشري - عن القائمين على تلك الحركة في - كتاب أساس البلاغة: "وهم الذين يصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم". وتشير الموسوعة البريطانية إلى "الشعوبية" بأنها كل اتجاه مناوئ للعرب.

وكلمة الشعوبية مشتقة من كلمة "شعب"، وأقدم كتاب حمل اسم الشعوبية هو كتاب "الجاحظ" – البيان والتبيين. ربما كان بعض العرب المسلمين يتعالون على بعض سكان البلاد التي فتحها المسلمون، لهذا كان الشعوبيون يتمسكون بالآية من القرآن

ليأتوا بحجة هي الأقوى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ). الحجرات (آية:١٣)

لذلك كان الشعوبيون يسمون حركتهم "حركة التسوية" والمقصود التسوية بين حقوقهم وحقوق العرب. يقول المفكر الإسلامي الإيراني "علي شريعتي"، تحولت الحركة الشعوبية تدريجيًا من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العجم على العرب. وعن ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة، يقول علي شريعتي عن "الصفوية"من ناحية استنادها إلى مبدأ الشعوبية: "وبغية ترسيخ أفكارها وأهدافها في ضمائر الناس وعجنها مع عقائدهم وإيمانهم عمدت الصفوية إلى إضفاء طابع ديني على عناصر حركتها وجرّها إلى داخل بيت النبي إمعانا في التضليل ليتمخض عن ذلك المسعى حركة شعوبية شيعية، مستغلة التشيع لكي تضفي على الشعوبية طابعا روحيا ساخنا ومسحة قداسة دينية، ولم يكن ذلك الهدف الذكي متيسرا إلا عبر تحويل الدين الإسلامي وشخصية محمد وعلي إلى مذهب عنصري وشخصيات فاشية، تؤمن بأفضلية التراب والدم الإيراني والفارسي منه على وجه الخصوص".

كان من الطبيعي أن تنتشر الشعوبية أولاً بين المسلمين الفرس كونهم أول من دخل الإسلام من غير العرب ثم ظهر شعوبيون آخرون في الهند وتركيا ثم بين الأسبان المستعربين في الأندلس. كان سبب انتشار النزعة الشعوبية بين الفرس قبل الفتح الإسلامي، هو، أن الفرس كانوا أكثر تحضرًا من العرب، وأكثر مدنية، فنمى لديهم شعور بالاستعلاء والتعصب ضد المسلمين العرب الذين سيطروا على بلاد فارس. وكون الفرس دخلوا الإسلام بإعداد كبيرة فكان منهم الموالي الكثر في قصور المسلمين. فكانت الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس الفرس تجاه العرب، وأخذ الشعر مركز الصدارة كونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والأسهل حفظًا في الذاكرة.

اتخذت الحركة الشعوبية من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء أمتها تجاه العرب خاصة والإسلام عامة وكان الشعر أحد أهم فروع

الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه الأكثر التصاقا في عقول القراء والمستمعين والأسهل حفظًا في الذاكرة. قال الشاعر الشعوبي أبو القاسم الفردوسي في ملحمته التي أسماها – الشاهنانة (سير الملوك): "من شرب لبن الإبل وأكل الضب؟ بلغ العرب مبلغًا أن يطمحوا في تاج الملك؟ فتبًا لك أيها الزمان وسحقًا".

وقال الشعوبي "اسماعيل بن يسار" يخاطب امرأة عربية:

واســـألي إن جهلـــتِ عنـــا وعـــنكم كيـــف كنّـــا فـــي ســـالفِ الأحقـــابِ
إذ نربـــــي بناتنـــــا ، وتدســـــونَ ســـــفاحًا بنـــــاتكم فـــــي التـــــرابِ

يقول بعض المؤرخين أن من أعمال الشعوبية اغتيال الخليفة الثاني "عمر بن الخطاب" على يد المولى "أبي لؤلؤة الفيروزي" انتقامًا للدولة الساسانية التي جرى قهرها في عهد عمر بن الخطاب. وكان أن تدخل الشعوبيون أيضًا بين أبناء الخليفة "هارون الرشيد" الأمين والمأمون حين استعان بهم المأمون ضد أخيه فكانوا قادة الجيش والمستشارين. ويقال بأن للشعوبية دورًا في إنشاء الفرق الباطنية كالقرامطة والنصيرية وغيرهم.

يقول بعض المؤرخين الذين يسفهون الرأي السابق، لم تشكل الشعوبية خطًا طاغيًا في الثقافة الإسلامية ولم تشمل الفلاسفة والعلماء والفقهاء، واقتصرت على الوسط الأدبي فقط، ولم يكن للشعوبية امتدادات سياسية ولم تتحول إلى فرقة كما يهول البعض مدعين على لسان بعض المستشرقين الذين نسبوا كثيرًا من الحركات والثورات الاجتماعية إلى نزعة الشعوبية مثل الحركة القرمطية أو البابكية أو الزنج.

▪ النازية

هي حركة سياسية تأسست في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى حيث تمكن المنتمون للحزب "القومي الاشتراكي الألماني" تحت زعامة "أدولف هتلر" من الهيمنة عام ١٩٣٣م على السلطة في ألمانيا وجرى إنشاء ما سمي بدولة الزعيم والمملكة الثالثة. ورغم هزيمة ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية، إلا أن

أفكار النازية وأهدافها ما زالت موجودة في عقائد وأنظمة بعض الأحزاب والمجموعات اليمينية التي تسمى اليوم بالنازية الجديدة أو القومية الجديدة، لكن الدعاية لهذه الأفكار أو تنظيم الشعارات واستخدامها ممنوع قانونا في ألمانيا والنمسا ودول أخرى.

تعتبر هزيمة ألمانيا واقتطاع بعض أجزائها وفرض شروط سلام قاسية (معاهدة فرساي) عليها بعد الحرب العالمية الأولى والأزمة الاقتصادية العالمية في ثلاثينات القرن العشرين الأسباب التي أدت إلى التفكير في ضرورة وجود حزب يعمل على اتحاد العمال، ورفع الاقتصاد من كبوته ورفع نسبة الشعور الوطني والانتماء عند الشعب الألماني بعدما أحبطته هزيمة الحرب، وهكذا جرى تشكيل النواة الأولى للفكر العمالي الاشتراكي الألماني.

في ٥ يناير ١٩١٩م قام "آنتون دريكسلر" والصحفي "كارل هارير" بالفعل بتأسيس حزب العمل الألماني في ميونيخ. وفي اجتماع الحزب الذي جرى في سبتمبر من نفس العام تم انضمام هتلر عضوا في حزب العمل حيث ذكر هذا هتلر نفسه في كتابه "كفاحي". وفي عام ١٩٢٠م بناء على توصية من هتلر جرى تغيير اسم الحزب فأصبح "حزب العمل القومي الاشتراكي الألماني". وفي عام ١٩٢٠م أصبح هتلر زعيمًا للحزب بسبب تمتعه بمهارات تنظيمية وقدرة فائقة على الخطابة. واعتبارًا من عام ١٩٢٤م بدأ الحزب باكتساب جماهيرية عريضة وتكونت خلايا حزبية نازية، ومضى هتلر يحلم بإقامة ألمانيا عظمى تقوم على أساس سيادة الجنس الآري وتفوقه. وفي انتخابات ١٢ ديسمبر ١٩٢٩م فاز الحزب النازي وتسلق البرلمان الألماني وكان عدد النواب الأعضاء في الحزب ٢٧٦ من أصل ٣٨٧ نائبا وبذلك قويت شوكة الحزب النازي وازداد نفوذه في الدولة الألمانية، وانتهى به المطاف إلى دخول الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩_١٩٤٥) التي كانت نهاية المطاف أيضًا لسيرته في حكم ألمانيا لأكثر من ١٥ عامًا.

كان مصطلح "النازية" وصفًا للأيديولوجية التي اتخذها ذلك الحزب في سنوات عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، والمبنية على العنصرية والتشدد ضد الأعراق

الأخرى وكذلك على علوّ أجناس بشرية معينة على أجناس أخرى. فقد آمنت الأيديولوجية النازية بقمع وحتى بإبادة الأعراق الدنيا، وبالمقابل الحفاظ على "طهر" الأعراق العليا. وكما أشرنا فقد وصل الحزب النازي إلى الحكم في ألمانيا عام ١٩٣٣م بقيادة "أدولف هتلر". وشرع باستعمال القوة لتحقيق أيديولوجيته.

▪ الفاشية

كلمة الفاشية (Faseism)، أتت من الكلمة اللاتينية (Faseism)، ويقصد بها العصبة أو الاتحاد، وهي تعني حزمة من الصولجانات كانت تُحمَل أمام الحكام في روما القديمة دليلاً على سلطاتهم. أما في تسعينيات القرن التاسع عشر فقد بدأت كلمة فاشيا "fascia" تستخدم في إيطاليا لتشير إلى جماعة أو رابطة سياسية عادة ما تتكون من اشتراكيين ثوريين. حينما واجهت إيطاليا عقب الحرب العالمية الأولى أزمة اقتصادية واجتماعية ونفسية، وعجزت الحكومات المتعاقبة عن التغلب عليها، وفقدت الدولة هيبتها، استغل موسوليني تلك الأوضاع وقام بتأسيس الحزب الفاشي.

والفاشية بصفة عامة، هي، مذهب له وجهان، وجه سياسي وآخر اقتصادي. نشأ مذهب الفاشية بالتحديد في إيطاليا عام ١٩٢٠م، فكان نتيجة اضطرابات عمالية حاول فيها العمال الاستيلاء على عناصر الإنتاج. وحدث فعلاً أنهم قاموا بالاستيلاء على بعض المصانع ومنها مصانع شركة (فيات) للسيارات، وأدى ذلك إلى شل حركة السوق، وكادت البلاد تنهار اقتصاديا. على الأثر قام "بنيتو موسوليني" بتأييد من جماعات كبيرة، فعمل على إعادة النظام واستولى على الحكم بالقوة، فاقترنت الفاشية باسمه. والفاشية من وجهة نظر موسوليني أن إرادة الشعب هي الوسيلة للحكم، وأن الوسيلة هي القوة التي تفرض القانون. وعليه فإن الفاشية تمنح السلطة التنفيذية أفضلية على حساب السلطات الأخرى، وبذلك يجري تركيز السلطة في يد رئيس الوزراء أي موسوليني.

هذا، ومن جهة أخرى، فقد كان للفاشية أثر كبير على النازية في ألمانيا التي تزعمها "أدولف هتلر"، وتأثرت بها أيضًا حركة الفلانجية الأسبانية التي تزعمها الجنرال "فرانكو" عام ١٩٣٩م. يقضي النظام الفاشي بتكوين نقابات من العمال وأرباب العمل، ويجب أن يكون أعضاء النقابات من الحزب الفاشي. ويرى أنصار هذا النظام بأن تدخل الدولة يجب أن يجري حين عدم كفاية المشروعات الفردية، وأن يأخذ هذا التدخل شكل الرقابة الإدارية من أجل تحسين المشاريع الاقتصادية في حال عجز الأفراد عن إدارة هذه المشاريع. وقد كان ظهور موسوليني بزيه الفاشي مؤشرا على أن اصطلاح الفاشية قد حظي بمعان أيديولوجية واضحة، لكن كثيرًا ما استخدم اصطلاح الفاشية للإساءة للخصوم السياسيين واتهامهم بالدكتاتورية ومعاداتهم للديمقراطية، والحق أنه لا يجب مساواة الفاشية بأساليب القمع الخالص.

والفاشية والشيوعية تتشابهان، إلا أن الشيوعية تختلف عن الفاشية في أن الحكومة تملك فيها كل الصناعات، أما الفاشية فتبيح للصناعة أن تبقى ملكية خاصة ولكن تحت سيطرة الحكومة.

من مظاهر الفاشية التطرف الوطني، والسياسات النازعة للعسكرية والميل للتوسّع والغزو واضطهاد الأقليات. فعلى أثر حدوث انهيار اقتصادي بالبلاد أو هزيمة عسكرية أو كارثة أخرى، يأتي الفاشيون إلى السلطة ـ في أغلب الحالات ـ ويكسب الحزب الفاشي تأييدًا شعبيًا لما يبذله من وعود بأنه سينعش الاقتصاد، وسيسترد كرامة البلاد، وبذلك يستحوذ الفاشيون على السلطة عن طريق انتخابات سلمية أو عن طريق القوة.

في ظل الحكومة الفاشية تكون الحرية الشخصية للأفراد مقيدة تقييدًا شديدًا، مثل تقييد حرية سفر المواطنين للبلاد الأخرى، وتهيمن الحكومة على الصحف ووسائل الاتصال في البلد، ويفرض على كل أفراد النشء الجديد الالتحاق بمنظمات الشباب لتعلم المفاهيم الفاشية، وتعم الرقابة البوليسية ويكثر الاعتقال والتعذيب للمعارضين. ينظر الفاشيون إلى الشعوب الأخرى على أنها أدنى من قوميتهم، ويكثر اضطهاد الأقليات العرقية في البلاد.

أما كيف وصل موسوليني إلى الحكم عام ١٩٢٢م، فقد جرى أنه طلب من الملك في إيطاليا تأليف الوزارة فرفض طلبه، فجمع الفاشيين وألف جيشا ورفع شعار ما سمي ب"المسيرة إلى روما"، وهدد بالاستيلاء على الحكم، فاستقالت الحكومة، وطلب موسوليني من الملك أن يكلفه بتأليف الحكومة، فلبي طلبه وأصبح رئيسًا للوزراء. ما كاد أن يستولي موسوليني على الحكم حتى أرجع كل شيء إلى الدولة، فعمل على حل المشاكل الاقتصادية وغير الحياة السياسية جذريا، وتم مصادرة الصحف المعارضة وأغلقت، وتركزت كل السلطات في يد الحكومة وألغى دور ملك البلاد، وعمل على إنشاء جيش قوي أخاف جيرانه الأوروبيين.

مع نهاية الحرب العالمية الثانية تم القضاء علي موسوليني واختفت الفاشية من الدول الأوروبية، إلا أن بعض الحركات الشبيهة بالفاشية ظهرت في بعض دول العالم الثالث وخصوصًا في المنطقة العربية مثل مصر بقيادة جمال عبد الناصر بعد الانقلاب على الملكية عام ١٩٥٢م، لكنها اختلفت عن النموذج المسوليني للفاشية بسبب ضعف القوة الاقتصادية والعسكرية لهذه الدول، وكون مثل هذه النظم نشأت أو أتت بعد الحرب العالمية الثانية، فقد وجدت عدم الترحيب من قبل المجتمع الدولي خصوصًا الدول الكبرى التي حاربت الفاشية الإيطالية.

الدولة الموحدة (المركزية)
الاتحاد الفيدرالي (تعاهدية)
الاتحاد الكونفدرالي (تعاهدية)

تنقسم الأنظمة القانونية للدول إلى عدة صيغ:

▪ الدولة الموحدة

الدولة المركزية أو الموحدة أو ما يطلق عليها أحيانًا الاندماجية، هي الدولة التي تتركز فيها السلطات في مركز (حكومة) يقرر كل ما يتعلق بشؤون الدولة جغرافيًا وإداريًا، مثل بريطانيا وفرنسا. وقد يحدث أن تتبع الدولة الموحدة نوعًا من اللامركزية، لكن هذا في العادة لا يتجاوز المستوى الإداري.

▪ الدولة الفيدرالية

هي الدولة التي تتوزع السلطة فيها بين مستويين أو أكثر، مستوى السلطة الفيدرالية، ومستوى الولايات أو الأقاليم. في هذا النوع من الدول يوجد دستور يحدد اقتسام السلطات بين المستويين الفيدرالي والمحلي (الولاية).
إن مضمون الاتحاد "الفيدرالي" ينطلق من الأهمية التي تتمتع بها مسألة طرق إنشائه ووسائله. لهذا تعددت التعريفات القانونية للاتحاد الفيدرالي، قال البعض هو إحاطة جماعات أو وحدات مستقلة بإطار يحتويها دون أن تختفي هذه الوحدات كشخصيات مستقلة. وقيل عن الاتحاد الفيدرالي أيضًا، إنه امتزاج مجموعات سياسية مستقلة واندماجها في بوتقة واحدة دون أن تذوب فيها وتختفي معالمها.

والتعريف الشائع هو أن الفيدرالية عبارة عن اتحاد ينشأ من اتفاق عدة دول بمقتضى دستور على إقامة اتحاد دائم فيما بينها، تمثله حكومة مركزية هي حكومة

الاتحاد بحيث يكون لها سلطات على حكومات الدول الأعضاء وعلى جميع رعاياها. وتنصهر الشخصية الدولية للدول الأعضاء في شخصية الدولة الاتحادية حتى وإن احتفظت هذه الدول بدساتيرها وحكوماتها ونظمها التشريعية والقضائية المحلية.

هذا، ويتميز الاتحاد الفيدرالي عن غيره من أنواع الاتحادات السياسية، بأنه يساعد على تكوين الدول الكبيرة، كونه يضم في دولة واحدة شعوبا ليست متجانسة تعيق قيام دولة مركزية واحدة. كما أن نظام الاتحاد الفيدرالي يوفق بين الوحدة الوطنية والاستقلال الذاتي للولاية أو الإقليم كونه يوحد التشريع في المسائل الجوهرية، ويترك مساحة كبيرة من الحرية للولايات أو الأقاليم أو المقاطعات في إصدار تشريعاتها في المسائل الثانوية المحلية. وتتوفر في نظام الاتحاد الفيدرالي مساحة كبيرة من الديمقراطية بسبب الحرية المتاحة لكل ولاية أو إقليم في سن القوانين المحلية ووضع الدستور الذي يناسب خصوصية مواطنيه الثقافية والدينية وغيرهما.

يتكون الاتحاد الفيدرالي إما بتفكك دولة موحدة إلى عدة وحدات بكيانات دستورية مستقلة ومن ثم وضع دستور اتحادي (فيدرالي)، بموجبه يتم إعادة توحيد هذه الولايات ثانية على أسس جديدة كما حدث في الاتحاد السوفيتي (سابقًا) سنة ١٩٢٢ والبرازيل سنة ١٨٩١ والأرجنتين سنة ١٨٦٠ والمكسيك وفق دستور سنة ١٨٥٧ المعدل سنة ١٩١٧ وتشيكوسلوفاكيا (سابقًا) سنة ١٩٦٩. أو بانضمام عدة ولايات أو دول مستقلة تتنازل كل منها عن بعض سلطاتها الداخلية، وتتوحد ثانية لتكوِّن الدولة الفيدرالية مثل الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٧٨٧م وجمهورية ألمانيا الاتحادية عام ١٩٤٩ والاتحاد السويسري عام ١٨٧٤. واتحاد الإمارات العربية عام ١٩٧١م.

من ناحية أخرى، إن الاتحاد الفيدرالي يقوم على عنصرين متناقضين "الاستقلال الذاتي" و"الاتحاد" وهو نتاج التوفيق بين رغبتين متعارضتين، الاتحاد والمحافظة على أكبر قدر من الاستقلال الذاتي للولايات الأعضاء.

وأما إبطال الاتحاد فيجري إما بانفصال الولايات من الاتحاد وتحولها إلى دول مستقلة نتيجة لحرب أهلية أو حركة ثورية، وإما بتحول الدولة الاتحادية إلى دولة بسيطة (مركزية) تصبح فيها الولايات مجرد وحدات إدارية لا تتمتع بأي استقلال داخلي، ومن أمثلة ذلك إندونيسيا التي كانت دولة اتحادية مكونة من ستة عشرة دولة بموجب معاهدة لاهاي المبرمة في نوفمبر ١٩٤٩م ثم تحولت إلى دولة مركزية بموجب الدستور الإندونيسي الصادر في ١٧ أغسطس عام ١٩٥١م.

الآن، دعنا نتوقف ولو قليلاً عند كيفية تكون الاتحاد الفيدرالي للولايات المتحدة الأمريكية بهدف الاستفادة ولفت النظر وتحسس مواطن البحث والفكر لما يمكن أن يكون عليه أي نوع مناسب من الاتحاد للأقطار العربية التي لن يستوي الأمر، إلا بقيامه كون الاتحاد القومي العربي حتمي مهما تأخر، لأن أي مواطن عربي يستطيع أن يكتشف بسهولة أنه وحدوي بمجرد أن يتذكر بأنه عربي. فحتى وإن كانت كلمة أنا عربي لا يوجد لها معنى وأثر في واقع الحياة الحالي للمواطن العربي الذي تتحكم به القطرية الهزيلة، فإن التوهان عن معنى أنني عربي يؤكد بأنه يوجد معنى، هو، "أنا عربي إذا أنا وحدوي" وهي موضع البحث والاكتشاف. فلا يمكن أن توجد صفة لشيء دون أن يكون الشيء موجودًا، وصفة العربي تدل عليه من خلال صفاته الأخرى كصفة وحدوي مثلاً. المواطن العربي موجود في كل قطر.. إذا الأمة العربية موجودة، وبالتالي فإن دولة هذه الأمة هي الغائبة ولا بد من استدعائها.

الولايات المتحدة قبل إعلان الاستقلال كانت تتكون من ١٣ مستعمرة بريطانية، وبعد حرب التحرير بين عامي ١٧٦٤-١٧٧٤م ضد الدولة المستعمرة، تحقق استقلالها في ٤ يوليو من عام ١٧٧٦م وقام بينها نوع من الاتحاد الكونفدرالي.
لكن التحالف بين المستعمرات الأمريكية لم يؤد إلى دولة جديدة، وإنما إلى منظمة تضم الدول المستقلة الأمريكية. فكان اتحادا ضعيفا كما هو الاتحاد الكونفدرالي ضعيف وهش، وهو ما دعا الدول الأمريكية إلى التفكير للتخلص من الخلافات والمشاكل بينها، فكان مؤتمر فيلادلفيا الذي انعقد في مايو ١٧٨٧م، وحضره

ممثلون عن ١٠ دول من الاتحاد الكونفدرالي، فكان هذا المؤتمر أول خطوة حقيقية لتحقيق الوحدة الفيدرالية بين المستعمرات المستقلة، حيث أقر فيه الدستور الاتحادي. في عام ١٧٨٩ تم إقرار الدستور الذي اشتمل على صلاحيات كل من الدولة الاتحادية والولايات، وجرى انتخاب "جورج واشنطن" كأول رئيس للاتحاد الفيدرالي في الولايات المتحدة الأمريكية.

لما تعرض الاتحاد الفيدرالي إلى عقبات منها خوف الولايات الصغيرة من وجود سلطة اتحادية قوية تؤثر على مصالحها الحيوية، نجح مؤيدو الفيدرالية في إقامة نوع من الاتحاد التعاقدي المحدود بهدف الحفاظ على القسط الأكبر من الصلاحيات للولايات الأعضاء.

لقد أثبت الاتحاد الفيدرالي الأمريكي نجاحه منذ أحداث الحرب الأهلية (حرب الانفصال) التي امتدت بين عامي (١٨٦١-١٨٦٤م) بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية، وقد انتهت هذه الحرب بانتصار الولايات الشمالية. ومنذ ذلك الحين انطلقت التجربة الأمريكية المتوثبة .

▪ الدولة الكونفدرالية

وهي نظام أو تنظيم يجمع دولاً مستقلة، وحيث تنشأ الكونفدرالية بناء على معاهدة أو اتفاق ينظمه القانون الدولي، ومثل هذا النوع من الدول (الكونفدرالية) لا يكون له دستور بل على عكس الدول الفيدرالية، فيمكن للدولة العضو في المعاهدة الفيدرالية أن تنسحب بإرادتها متى أرادت. ويمكن تعريف الاتحاد الكونفدرالي بأنه شكل من التنظيم الاتحادي بين دول تعهد بعض صلاحياتها إلى سلطة مركزية مشتركة مع الاحتفاظ بحكوماتها المميزة. وتتألف السلطة المركزية في هذه الحالة بإجماع الدول الأعضاء في الكونفدرالية. ولهذا فإن الدولة الكونفدرالية تخضع جميعها لرئيس دولة واحدة، ويكون لها سياسة خارجية موحدة مع استقلال كل دولة من الدول الأعضاء بنظامها السياسي الداخلي. لذلك ينشأ الاتحاد الكونفدرالي

بناء على معاهدة بين دول كاملة السيادة تقوم على تنظيم العلاقات الاقتصادية والثقافية والعسكرية مع بعضها البعض، ويكون لكل دولة حكومتها ونظامها السياسي وجنسية مواطنيها، ويحق لها الانسحاب من الاتحاد. كما أن الأجهزة الكونفدرالية المشتركة تمارس صلاحيات محددة على الدول الأعضاء المكونة للاتحاد لا على رعايا هذه الدول، وتبقى كل دولة متمتعة بسيادتها الداخلية وشخصيتها الدولية، ولها الحق في التمثيل السياسي مع الدول الأجنبية. وأما الهيئة المشرفة على الاتحاد الكونفدرالي فتقتصر مهمتها على دور استشاري لتحديد السياسة المشتركة للدول الأعضاء على أساس توصيات لا تلزم دول الاتحاد ما لم توافق عليها. لهذا فإن الكونفدرالية تمثل السلطة لدولة لا مركزية واسعة، يحق فيها للدول الأعضاء تبادل التمثيل الدبلوماسي خارج منظومة الدول المكونة للاتحاد وإبرام المعاهدات الدولية. يوصف الاتحاد الكونفدرالي بأنه ضعيف ومؤقت.

وأما المظاهر الداخلية والخارجية للاتحاد الكونفدرالي من الناحية السياسية، فهي تقوم على أن دولة الاتحاد تتكون من عدة دول تتنازل عن جزء من سيادتها للدولة الاتحادية التي يطلق عليها الحكومة الاتحادية، ومن الطبيعي أن يكون لكل دولة من دول الاتحاد سلطات تشريعية وتنفيذية وقضائية، ولا تختلف هذه مع سلطات الدولة الاتحادية. كما أن السلطة الاتحادية من ناحية أخرى، لا تلزم الأفراد مباشرة في دول الاتحاد ولا تتصل بهم إلا عن طريق حكوماتهم.

لهذا فإن الدول الداخلة في الاتحاد تحتفظ بنظام حكمها السياسي الذي قد يختلف عن نظم الحكم في دول أعضاء الاتحاد الأخرى، كما تحتفظ بجنسيتها الخاصة والمستقلة عن غيرها. ويكون رعايا الدول الأخرى الشريكة في الاتحاد أجانب بالنسبة إليها.

ودولة الاتحاد الكونفدرالي ليس لها الحق في منع أي دولة من الأعضاء من الانسحاب، ويحظر استخدام القوة بين دول الاتحاد في حل نزاعاتها. وعليه فإنه ليس لدولة الاتحاد ممثلون دبلوماسيون لدى الدول الأخرى حيث تحتفظ دول الاتحاد فرادى بكامل الأهلية بتبادل التمثيل الدبلوماسي مع غيرها من الدول. كما أن

دول الاتحاد يحق لها عقد المعاهدات مع الدول الأخرى بشرط ألا تتعارض مع مصالح الاتحاد. بالنسبة للحرب التي قد تنشب بين إحدى الدول الأعضاء في الاتحاد لا تعد حربًا أهلية وإنما تعد حربًا دولية.

بالنسبة لقضايا العلاقات الخارجية والدفاع وقرارات الحرب والسلم والضرائب والخدمات الاتحادية، فإن البت في هذه القضايا يتم بصورة جماعية، ويكون لكل دولة من الدول الأعضاء حق النقض أو الامتناع عن تنفيذ القرار.. ينظم هذه الأمور هيئة أو جمعية أو مجلس يعمل على وضع الميثاق العام للاتحاد.

تعرف الدول (الفيدرالية والكونفدرالية) بشكل عام بالدول التعاهدية أو الدول المركبة، لكن منظومتها تختلف من ناحية علاقة الدولة الاتحادية مع بعضها البعض ومدى خضوعها للنظام الاتحادي ذاته. ولهذا جرى تركيزنا على الدول التعاهدية (الفيدرالية والكونفدرالية)، وهو ما يناسب تطبيقه في دولة الوحدة العربية الكبرى بسبب خصوصيات الأقاليم والأقطار العربية التي يكون من الصعوبة تحقيق الوحدة بينها ضمن دولة مركزية اندماجية موحدة.

أخيرًا..

الاتحاد "الكونفدرالي" لا يعبر عن وحدة حقيقية بين الدول المكونة له، وهو لا يعدو عن كونه نمطًا واهيًا من الوحدة بين الدول الداخلة فيه. لهذا لا يوجد قيمة حقيقية لهذا النوع من الدول التعاهدية.

أما الاتحاد "الفيدرالي فيعد قوة حقيقية، وهو اتحاد ناجح بكل معايير الدول، وأبرز مثال على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية وكندا وألمانيا.